كوفيه

CUVIER

ان سيَر الرجال العظام الذين افادوا الجنس الانساني بفضائلهم تبعث في النفوس نشأةً وتنشره في الناس نار الغيرة وترتقط فيهم الهمم من رقدتها . وحسبنا ان بعض نوابغ الرجال كانوا مولعين بسير من تقدمهم حتى انهم كانوا يحفظون كتب اخبارهم معهم كيف ساروا ليستفيدوا منها عملاً . وممَّن يُشار اليهِ بالبنان في فرنسا عالمها الطبيعي الذائع الصيت جورج ليولد كوفيه . ولد هذا العلاَّمة في مونت بليار Montbéliard من اعمال فرنسا (لكنها كانت حين ولادتهِ من املاك دوك ورتمبرج الالماني) وذلك في ٢٣ اغسطس سنة ١٧٦٩ وكان ابوهُ في صباهُ قد خدم الجندية السويسيَّة ثم خرج منها صغير اليدين لا يملك من حطام الدنيا غير راتب تقاعدٍ ووسام الاستحقاق الذي نالهُ من حكومة سويسرا بعد خدمةٍ طويلة . ولما تزوج رزق ثلثة بنين كان جورج ثانيهم . الاَّ انهُ كان نحيل الجسم ضئيلاً ولذلك بذلت امهُ في الاعتناء بهِ جهدها الجهيد وشرعت تعلمهُ في حداثتهِ مبادئ الافرنسية واللاتينية حتى اذا تمكن منهما بعض الشيء جعلت تحبِّب اليهِ درس المؤلفات المفيدة في التاريخ والادب فغرست في عقلهِ فسائل الرغبة الشديدة في طلب العلم حتى اذا بلغ العاشرة من سنيهِ دخل مدرسة الجناسيوم وكدَّ في تحصيل علومها مدى اربع سنوات واذ كان ذكيَّ الفؤاد ادرك من علم التاريخ واللغات شأوًا حسنًا . وكان الفضل في التقاط رغبتهِ بتحصيل التاريخ الطبيعي لدرسهِ ابحاث العلاَّمة بوفون المشهور وقد قرأ منها كتابًا وجدهُ عند احد اقربائهِ واذ كانت حافظتهُ عجيبةً وعى فيها كلما قرأهُ حتى انك كنت تجدهُ حافظًا كل اسماء الطيور والدبابات وهو في الثانية عشرة من عمرهِ ولما خرج من المدرسة وسنهُ لا يزيد عن الرابعة عشرة اعجب بهِ ابوهُ كل الاعجاب وشرع يطوف بهِ على اقربائهِ واصحابهِ

وكان قمتهُ الكبيرة كانت اقوى من جسمهِ وعقلهُ كان اكبر من سنهِ ولذلك جمع بعضًا من رفاقهِ في المدرسة وجعلهم مجمعًا علميًّا تحت رئاستهِ وشرعوا يقرأون المؤلفات ويبدون آراءهم فيها

فكان عملهُ هذا احسن بداءةٍ لعمر قضاهُ في الجد والعمل الشريف النافع وظهرت براعتهِ على ذلك المجمع مقدرتهُ في البلاغة وحسن الالقاء وضبط الاعمال كأنهُ قضى السنين الطوال في الاختبار

وعزم ابوهُ على ادخالهِ في مدرسة توبنجن Tübingen ليقرأ فيها العلوم الدينية ويخرج منها مستعدًّا للكهنوت ولكنهُ استاذًا حسودًا سعى لحال دون نيل المبتغى فحسب المتوجع وابوهُ انهما نكبا اشد نكبة لان اباهُ كان فقيرًا لا يقوى على احتمال نفقة تعليمهِ في المدارس العالية. ولكنَّ الامر جاء على عكس ما حسبا ذلك ان الدوك شارل صاحب البلاد جاء المدينة التي كان يسكنها كوفيه وما لبث ان اتصل بهِ مبلغ نجاحهِ في دروسهِ واتقاد ذكائهِ وشدة حافظتهِ فمال اليهِ وانعم عليهِ بنفقة تعليمهِ في المدرسة العليا بستوتكارت فدخلها سنة ١٧٨٤ فوجدها حافلة بالطلبة تقسم دروسها الى خمسة فروع هي الحقوق والطب والادارة والهندسة والتجارة فقرأ في السنة الاولى الفلسفة ودخل في الثانية فرع الادارة وكدَّ في التحصيل وكان يتخير فرص الفراغ من دروسهِ القانونية ليتمكن من التاريخ الطبيعي بما ينعم النظر فيهِ من امثلتهِ في المتاحف المدرسية وفي الحقول والمزارع ولم يكن معتمدًا على شراء كتب هذا العلم لضيق ذات يدهِ فبدلاً من ان يستفيد من آراء العلماء المؤلفين وابحاثهم كان عليهِ ان يستنتج من مشاهداتهِ ويستفيد من ابحاثهِ . الاَّ ان احد اساتذتهِ اهدى اليهِ ذات مرة نسخةً من كتاب لينيوس Linnaeus في نظام الطبيعة Système de la Nature فاتخذهُ مرشدًا ومع كل هذا الولوع في درس الطبيعة كان في طليعة رفاقهِ طلبة علم الادارة حتى انهُ نال كثيرًا من الجوائز المدرسية . وكان معظم اهتمامهِ منصرفًا للتضلع من علمي النبات والحشرات فكان يجمع الامثلة ويرى في اوصافها ويرتب انواعها ويبين فروقها حسبما تفتق لهُ خواطرهُ من غير ان يستهدي بآراء العلماء الذين سبقوهُ ولذلك لم يكن يستطيع ان يقابل بين مشاهداتهِ ومشاهداتهم

وما زال هذا حالهُ من الجد والتكد حتى أتمَّ دروسهُ وخرج من المدرسة سنة ١٧٨٨ مثقلاً بالجوائز وقائلاً لقب الفارس (شيفاليه) ممَّا كان من نظام المدرسة ان تمنحهُ للبارزين من طلبتها ليكون لنائلهِ الحق في تولي مناصبها . وبنيلهِ هذا اللقب يخولهُ ان يعيَّن استاذًا في المدرسة لكنهُ لم يصبر حتى يتعين وقوع فراغ في المناصب لان فقر عائلتهِ كان مدقعًا فاضطر ان يبحث عن عمل آخر يدرُّ عليهِ شيئًا يستعين بهِ على العيش شريفًا . فعرض عليهِ التعليم في احدى عيال نورمنديا فارتضى بذلك وهو لم يزل في الخامسة عشرة من عمرهِ ولما بلغ دار مستخدمهِ الكونت داريسي في مدينة كان Caen ليدرِّس ابنهُ سرَّ جدًّا لا سيما وان حديقة الدار كانت ملأى بالنباتات التي تمكنهُ من التعمق في دروسهِ النباتية فضلاً عن ان الكونت نفسهُ كان من المولعين بجمع محجرات الاسماك وقد تسنَّى لهُ انشاء مجموعةٍ

كبيرة منها جعلها بين يدي كوفيه يبحث فيها ما شاء ولم يمض على مقامه في مدينة كان الزمن الطويل حتى انتقلت عائلة الكونت منها الى فيكانفيل في ضاحية كاو Caut فوجد ثمت مجالاً رحيباً لدرس نتاج البر والبحر فكان يعلم تلميذه بكل اجتهاد حتى اذا سنحت له فرصة مال الى درسه وقضى فيه الساعات الطوال فجمع كثيراً من النوادر والاوابد . وظل على عمله دائباً مجتهداً الى سنة ١٧٩٤

وحدث انه وجدت في جواره بعض الاصداف الغريبة فخطر له ان يقابل اشكلة الاصداف المتحجرة بمثلها من الاحياء ثم رأى ان يحدث في ترتيب الحيوان اصلاحاً فكان من هذين الخاطرين نشأة مؤلفيه الكبيرين اللذين اشتهر احدهما باسم النظام المتحجرة والآخر باسم Règne Animale (المملكة الحيوانية)

وفي غضون تلك الاونة قدم بلدة كان الاب تيسيه متخفياً هرباً من الاضطرابات التي بدأت في باريز ومتخللاً اسماً مستعاراً وكان من رجال العلم فدخل ذات مرة جمعية زراعية في كان وحضر جلستها وسمع مباحثها ونهض فأبدى رأيه في قضية كانت الجمعية تبحث فيها وكان كوفيه كاتباً للجمعية فلما سمع كلام تيسيه عرفه لما كان قد اتصل به من آرائه وما لبث ان تصادق الرجلان فكتب تيسيه الى جسيو وجفروى سنت هيلار يقول انه اكتشف جوهرة في نورمنديا وشرع يذكرها بما سبق له من تقديم ديلامبر للاكاذيمية وان كوفيه سيكون ديلامبر آخر ولكن سبيله غير سبيل ذاك . فوقعت رسائل تيسيه موقعاً جليلاً وادت الى تعارف العلماء الباريزيين بكوفيه فدارت المراسلة بينهم في التاريخ الطبيعي . وكان سانت هيلار يوشئذ في مقتبل العمر ولد عهد اليه ان يعلم الحيوان في مدرسة باريز الا انه لم يكن ثقة فيه ولما رأى كتابات كوفيه وكيف ابدع من غير أخذ عن استاذ ولا نقل عن غيره اعجب به كل الاعجاب وكتب اليه يستقدمه الى باريز ويقول تعال الى باريز سريعاً وكن بيننا مثل ليفيوس بل مثل مؤسس آخر للتاريخ الطبيعي . فلبى كوفيه الطلب وجاء باريز في ربيع سنة ١٧٩٥ وهو صفر الكف . فلما وصل سعى له كاتب جمعية علماء الطبيعة بخدمة في جمعية الفنون راتبها نحو الفي فرنك في السنة فارتضى كوفيه بذلك واقام في منزل صديقه سنت هيلار حتى يتسنى له الحصول على عمل آخر . وقيل انه تعين استاذاً في مدرسة الياثيون فالف ثمت كتاباً اظهر فيه آراءه في ترتيب الحيوان . وكان لذلك العهد عالم اسمه مرتزو يدرس علم تشريح المقابلة في معرض الحيوان بحديقة النبات Jardin des plantes وهو شيخ العجزة الايام عن القيام باجباته فتماسى سانت هيلار لديه عهد الى كوفيه ان يسعفه في عمله ومنذ ذلك اليوم شرع

يُعد مجموعة حسنة لتشريح المقابلة حتى إذا تمّمه ذاع صيتها . وكان قد صار عضوًا في جمعية محبي العلم ثم في الندوة الكبرى L'Institut ونشر في الصحف العلمية بعض مقالات لا تخلو من الخطإ فلم يلتفت العلماء الى كثير منها على انهُ عاد يبحث عن حجرة الطائر فلفت الانظار الى البحائر الدقيقة وهو ما كان اهتمام الباحثين في مقالاتهِ حين شرع يكتب في ترتيب الحيوانات ذات الدم الابيض . ثم شرع يشارك سانت هيلار في بعض المباحث فنال الحظ الاوفر من ثناء قرائهِ لان مادتهُ في العلم كانت كثيرة بما اكتسب من الخبرة الواسعة لا سيما بمطالعة الكتب الالمانية التي كان يستعيرها من رصفائهِ العلماء حين كان في نورماندیا فتنوعت لذلك مصادر معرفتهِ بخلاف رصيفهِ سانت هيلار فانهُ لم يكن مطلعًا الاَّ على ما كتب دوبنتون وهو لم يأخذ عنهُ الاَّ العلم بطبائع الحيوانات العليا لان الحيوانات الدنيا لم تكن عا التفت اليهِ العلماء حتى ذلك اليوم

وسنة ١٧٩٦ تعيَّن كوفيه كاتبًا ثالثًا لقسم الحيوان في الانستي وفي سنة ١٧٩٩ توفي دوبنتون استاذ التاريخ الطبيعي في مدرسة فرنسا فخلفهُ كوفيه . وسنة ١٨٠٠ نشر احد تلامذتهِ خطبًا في تشريح المقابلة في مجلدين ضخمين ثم نشر غيرهذا التلميذ نفسهُ تلك الخطب في ثلاثة مجلَّدات . وسنة ١٨٠٢ نال نفسهُ منصب تدريس تشريح المقابلة في متحف الحيوان خلفًا للاستاذ مرتزو . واتصلت انباء اقتدارهِ بنابوليون بونابورت وهو يومئذٍ صاحب الامر في فرنسا فعيَّنهُ في جملة المفتشين العموميين الذين عهد اليهم النظر في انشاء المدارس العالية والاستعدادية في البلاد ونسب اليهِ التفضل في انشاء مدارس مرسيليا ونيس وبوردو وسنة ١٨٠٣ وسدت اليهِ كتابة السر الدائمة في صفوف العلوم الطبيعية في الانستي فاستعفى من منصب التفتيش واقام في منصبهِ الجديد شاكرًا على اقامهِ واجباتهِ حتى آخر حياتهِ وفي سنة ١٨٠٨ وضع تقريرهُ في نجاح العلوم الطبيعية في فرنسا من سنة ١٧٨٩ الى حينهِ فسرَّ الامبراطور بونابرت بهِ جدًّا وجعلهُ مستشارًا لمدى الحياة في الجامعة الامبراطورية فكانت هذه المرتبة تدنيهِ من بونابرت وتكثر من اجتماعها وسنة ١٨٠٩ وسنة ١٨١٠ أرسل معتمدًا كبيرًا من قبل بونابرت لتنظيم الندوات والمدارس العليا في ايطاليا وسنة ١٨١١ أرسل الى هولاندا ومدائن الهانسيتيت بمثل تلك المهمة فأنعم عليهِ بوسام جوقة الشرف من رتبة فارس . ومع انهُ من البروتستانت ارسلهُ الامبراطور سنة ١٨١٣ الى رومية ليؤسس فيها جامعة فلما أتمَّ عملهُ عيَّنهُ رافعًا للعرائض في مجلس الوزراء ثم عهد اليهِ ان يذهب الى ضفة الرين اليسرى ليثير الاهلين على غزاة فرنسا فلما بلغ نانسي ورأسهُ العدو متقدمًا ثنى عنانهُ

راجعاً الى باريز وفي سنة ١٨١٤ رقاهُ الامبراطور الى رتبة مستشار . وظلَّ متمتعاً بهذه الرتبة حتى في زمن الملك لويس الثامن عشر

ومنصبهُ السياسي هذا جعل لهُ يداً في الاصلاح القضائي ونال مرتبة مستشار الجامعة وأقام متمتعاً بحقوقهِ منها بالرغم عما لقي من المقاومة لانهُ كان من البروتستانت وفي سنة ١٨١٨ أتى انكلترا سائحاً واستصحب عائلتهُ فدرس شؤونها السياسية والعلميَّة وتفحص قوانينها وفي أثناء اقامتهِ فيها اختارتهُ الاكاذيميَّة عضواً فيها وفي سنة ١٨١٩ عيَّن أستاذاً اعظم في الجامعة ورئيساً للجنة الداخليَّة ومن ثمَّ منحهُ الملك لويس الثامن عشر لقب بارون مراعاةً لمزاياهُ العلميَّة واقراراً بفضلهِ وفي سنة ١٨٢٢ عيَّن استاذاً اعظم لمدارس اللاهوت العليا لطائفة البروتستانت ونظم الرعاية والمشارفة على حقوق أبناء طائفتهِ وامتيازاتهم الدينيَّة والمدنيَّة والسياسيَّة وفي سنة ١٨٢٧ أضيف اليهِ حق المشارفة على حقوق كل أبناء المذاهب الاخرى الاَّ الكاثوليكيَّة . وكان قد سبق لهُ سنة ١٨٢٤ ان حضر حفلة تتويج الملك شارل العاشر كاحد رؤساء المجلس الاعلى فمنحهُ ذلك الملك رتبة ضابط اعلى من جوقة الشرف وسنة ١٨٢٧ عرض عليهِ ان يكون مراقباً للمطبوعات فأبى

قلنا ان كوفيه شرع يباحث هو وصديقهُ سانت هيلار في المواضيع الطبيعيَّة وتزيد الآن انهما كانا في بادىء أمرهما يبحثان في أنواع الحيوانات المجتمعة في المعرض فكتبا أولاً في البحث عن ذوات الثدي ووقع الخلاف العلمي بينهما واحتدم الجدال حتى تنابذا وانبرى كوفيه لتأييد رأيهِ فردَّ عليهِ سانت هيلار وتمادى الخلاف بينهما حتى أفضى الى احتدام الجدال في كثير من جلسات الاكاذيميَّة وكانت اقوالهما تتصل بانحاء الفرنسويين والاجانب فنشأ لكل منهما حزب يؤيد بمشوراتهِ رأي صاحبهِ

ولد نبغ في القرن الثامن عشر عالمان خطيران بحثا في علم الحيوان بحثاً دقيقاً وهما لينيوس وبوفون وكان من مذهب الاول ان يفحص عن أنواع الحيوان بالتحليل ومن مذهب الثاني ان يعدل عن التحليل الى جمع نواميس علم الحياة ليؤخذ منها العلم بطبائع الحيوان الاَّ انهما لم يكونا عارفين بالحقائق التي جمعاها معرفةً صحيحة بخلاف كوفيه فانهُ ادرك سر تلك الحقائق . وكان معظم فساد نتائجها انهما لم يكونا يتمهلان في تفهم الحقائق اما كوفيه فكان على عكس ذلك يتأنى في تفهم الحقيقة والاستفادة منها فظهرت لهُ مبادىء العلمين الجليلين أعني علم الحيوان وعلم تشريح المقابلة ظهوراً حسناً ونتج عنهما علم آثار الحيوانات والنباتات المندثرة والفضل في ايجاد هذا العلم راجع اليهِ

وكان لينيوس قد قسم الحيوان الى ست مراتب هي ذوات الثدي والطيور والماشية البرية والاسماك والحشرات والديدان وقد جعل لها كلها اهمية واحدة وظن الفارق بين المرتبة الواحدة والاخرى متساوياً في جميعها فكانت تلك النظون أولى غلطاته لما في اعتمادها من التشويش لانك تجد بين انواع الحشرات فروقاً اعظم مما تجد بين ذوات الثدي والطيور او بين هذي والاسماك فضلاً عن ان الخصائص التي اتخذها مداراً للفصل انما اختارها تحكماً من عند نفسه فجعلت في مرتبة واحدة حيوانات تتباعد كثيراً بعضها عن بعض واما مرتبة الديدان فكانت اكثرها تشويشاً لانها جمعت كل حيوان لم يكشف التشريح عن مميزاته

وظن هذا الترتيب معمولاً به حتى اقتضى الامر اختيار ترتيب آخر مبني على نتائج التشريح فاتجهت أوائل أعمال كوفيه الى هذا الدوب حتى تسنى له اشهاره فتبين منه ان الديدان مرتبة تشمل كل ما يُعرف بذوات الدم الابيض وهي تكاد تكون نصف المملكة الحيوانية ومن ثم قسم هذه المرتبة الى ثلثة فروع أولها الحيوانات الصدفية وثانيها الحشرات التي لا قلب لها وثالثها الشبيهات بالنبات

ثم عاد فأضاف الى ترتيبه أقساماً أخرى اضربنا عن ذكرها تجنباً للتطويل . وفضل كوفيه في البحث والتدقيق لا يُجحد وكذلك في تنسيق ذوات الفقرات لانها على علو مرتبتها في طبقات الحيوان لم يبحث في شأنها من قبله بحثاً كافياً فترى ارسطو حام حول ذكرها ولم يفصّل بل ابقى هذا الفضل لكوفيه بعد ان مرّت على قراءِ العصور والناس تحلّهُ المحل الاول من التجلة والاعتبار حتى اذا جاء كوفيه بترتيبه كان كأنهُ واضع علم الحيوان

وكان العلماء قبل زمن كوفيه وفي بدء أمره يحارون في تعليل الحجرات الحيوانية ولا يهتدون الى معرفة وجود آثارها في قلب الارض ولا يعرفون أتلك آثار انواع انقرضت ام لم تزل حيّة فلما اشتد ساعدهُ بعلم بحث فرأى الصواب جلياً وتلا على الندوة العلمية نبذة في الاذيال المحجرة واحيّة فكشف القناع عن سبيل البحث العلمي وأشار على الطالبين ان يمعنوا النظر في ما يبدو من خصائص المتحجرات حتى اذا قابلوها بطبائع الحيوان الحيّ عرفوا الحقيقة ففتح بذلك باباً للمهتدين

هذا نمرٌ نجاح كوفيه وعلو قدره في العلم والسياسة وقد ظلّ متمتعاً بالتجلة والوقار حتى قضى نحبهُ مكرّماً من الجميع في ١٣ مايو سنة ١٨٣٢

ولقد كان رجلاً يُقتدى به ويجتهدًا لا يعرف الراحة تولى الاعمال الخطيرة والمناصب الخطيرة وازدحمت عليه الاعمال ازدحاماً يزري نحلهُ أعظم الرجال ولكنهُ لم

يسهل شيئاً بل اقتدر على النهوض بها كلها وسرّ هذا الاقتدار مارتّب لنفسهِ من العمل في كل ساعةٍ من ساعات النهار . وكانت اعماله الادارية أي التي يقوم بها في خدمة دولتهِ تفرض عليهِ القيام في وزارة الداخلية او في المدارس العليا فكان يوفي تلك الاعمال حقها ثم اذا رجع الى مكتبهِ دخل الحجرة بعد الاخرى يقيم في كل منها وقتاً لدرس العلم الذي أعدّ معدّاتهِ فيها وبهذا الترتيب لم يذهب من وقتهِ شيء سدًى وكان التنويع في العمل بمثابة راحةٍ من متابعة العمل الواحد

ولقد وصفهُ بعض من حضروهُ في وزارة الداخلية فقال انهُ كان يجلس على كرسي الرئاسة صامتاً والاعضاء حولهُ يتباحثون كأنهُ شارد الفكر عما يقولون حتى اذا انتهت مباحثهم نطق بما أخذ من اقوالهم وكان قولهُ الفصل

وكان اذا دخل دارهُ في المساء ألقى بنفسهِ على المتكإ فجلست امرأتهُ وابنتهُ اليهِ وشرعتا تقرآن لهُ مناوبةً واما اخلاقهُ فقيل فيها ما يدل على الذوق والجفاء الاّ انهُ كان رقيق الجانب يغضي عن قوارص الكلم . وقد لامهُ الناس ونددوا بهِ لانتقالهِ بالعداء على صديق مباهٍ سانت هيلار وهو المحسن اليهِ . ولعلّ ذلك كان لاعجابهِ بنفسهِ ومعرفتهِ قدر فضلهِ فكبُر عليهِ ان يُنكر عليهِ عملهُ الواسع وجلّ من لا عيب فيهِ

م . ن

الموت والحياة

يطفئُ الموت ما تضيءُ الحياةُ ... ووراء انطفائها ظلماتُ
ان للنازلين في القبر نوماً ... تنتهي في سكونهِ الحركاتُ
كم وقفنا على ضريحٍ كريمٍ ... وقفةً قد جرت لها العبراتُ
نتمنّى للعيش فيهِ الدنيا ثباتاً وهل لعيشٍ ثباتُ
انسينا انّا على الارض ابنا ... ء اناسٍ عاشوا قليلاً وماتوا
عاش في الارض مثلنا الناس قبلاً ... وهمُ اليوم اعظمٌ باليباتُ
هل لقومٍ ساروا نزوعٌ الى الاهل تُرى او الى الديار التفاتُ
غرض كلٌّ من على الارض يحيا ... لمنايا سهامُها صائباتُ
ستموت الاحياء طرًّا ولكن ... هل تلاقي حياتها الاموات
نحن لبلى تحت التراب وفوق الارض تجري الفصول والاوقاتُ